

أفول

ربيعة ربحان

العابرون بلا حصر. يتدافعون. يلتصقون كتفاً لكتف وزنداً لزند. تتفرّس في ثياب النسوة. تستلفتها الزينة. تحلم بشراء عطر وأصباغ.

أمس جاءها إلى طرف الرّاق. متسلّلة خرجت إليه. مدّ يده إلى يدها وانعطفاً بتعجل هيّاب. تحت ظلّ غامض لسقيفة مهترئة، وقفا ينسجان معاً مسافات بنفسجيّة في المدى الأبعد لحلم نافر.

تطلّع إليها كمن يراها لأول مرّة، مشدوهاً بأشواق الصّبا. أطلقت بسمة في رقّة الندى واستدركت بحيطّة:

- يجب أن تزرونا قريباً!

بصوته النّابز أعطى وعده، ووخز مباحث ينفذ إلى الأحشاء.

يتقدّم من الطّبق رجل مجعد الوجه. يتفحص أقراص الخبز. يعيدها. يده تمتدّ إلى القعر. يستلّ أقراصاً أخرى من تحت الغطاء السّميك. يتملّى قفاها ويعيدها. ترمقه في غضب. تنهاه عن العبث. يكتفي بالنّظر شرراً إليها. يتحوّل إلى باقي الأطباق. تشتم في أعماقها سحتته البغيضة.

تنسى غضبها وتقبل على جارّتها.

يتقدّم المساء.

تصير السّاحة كتلةً من الصخب والأجساد. الناس عاكفون على شراء ما فوق البسطات. بعضهم يقف وجهاً لوجه يتفرّج على المشترين. يتابع الأخذ والرّد. يلهج بذلك الفضول الفجّ إلى أن يمضي الزّبون ببضاعته. يحدث ذلك كثيراً عند باعة السّمك وفي جناح الدّواجن.

تنحني لتسوي وضع أقراص الخبز. تغطّيها. تترك على الواجهة رغيفين من كلّ صنف. تقول بتشوّف غريب لجارّتها ونظرّها لم تسحبها بعد من فوق الطّبق:

- أراك على العشاء..

تضحك.

صبايا هنّ كالزّهر البرّي. تحجب نضرتهم وينوعهنّ أعباء العيش وتناسلّ الحاجة وسوء الطّالع. يعسكرون على امتداد السّاحة العفنة أمام صناديق طولانيّة تعلوها أطباق القشّ المقعّرة، تسترخي فوقها أقراص الفطائر والخبز الأبيض والأسمر. يلففن بمهارة حول قدودهنّ أطراف «الحايك» الصوفي، وينبشن أحاديث عن المطر والمرض وحوادث البحر. تميل إحداهنّ على جارّتها وتممس:

- لقد جاء!

يلوح في البعيد عاكفاً على سلاله.

تطوّح بطرف «الحايك» الخشن، الّذي يجب جيدها الأتلع وصدورها العارم. تراقبه حاملة مبتسمة، تمرّ خلسة كفّها على أسفل بطنها.

المساء طريّ، وساحة سوق «عوا» تحتق بصخبها المعتاد. جنباتها تفرّخ باعةً يغطّون اسفلتها من غير نظام بأقفاص الدّواجن وأكوام الخضّر وباقات المعدنوس والقزبر وموازن الحديد، بينما صناديق السّمك وسلال السّردين تمتدّ في التقاطع العريض للسّاحة، وثمة قهقهات وصراخ وشدّ وجذب ومساومات عفوية ومستفزة.

تسحب كرسيّ القشّ المتفسخ الوطنيّ من تحتها قليلاً إلى الأمام. يأتي الزبائن ويروحون. يشتررون الخبز والفطائر أو يبتسمون ببلاهة مطيلين النّظر. تضيء أعينهم بشعاع الرّغبة. تظنّ إشارات دقيقة داعرة على مهل. تتواطأ عيون. تلحظ أخرى وتتجاهل. تُسرّ الفتاة لجارّتها:

- سيحيء الليلة إلى أمي...

تستلّل نظرتها إليه. ترسو على الزندين الفتيين والرقبة العريضة المنحنية.

- ينظر نحوي!

تهتف من جديد.

تجذب قليلاً طرف الحايك. تعيد ترتيب شعرها الحريريّ الطّائش من تحت الغطاء.

تحدّق في أحذية المارّة.

موج العابرين يتدقق نحو التقاطع العريض للساحة. هناك تنشط في الوقت المتأخر من كل مساء حركة مشوشة مضطربة، تتقلب في روائحها المنتنة من زفير أحشاء السمك ونداءات الباعة على الأجساد المتقطرة الأيدي دماً وملحاً وحراشيف. يأتون ركضاً بثيابهم المرتوقة الملطخة. سكاكينهم حادة. يبقرن بطون السمك على الاسفلت. تتسع رقعة البلبل ويعلو كوم العفونة.

يطبق على صدرها خوف واجف. تذكر أمها. كانت تمسك بيدها وترمقها بطرف عينها وهي تسأل. نظرة تكسر طوق التماسك والكلام المنمق. على نحو ما كادت تكشف المستور، وكانت قد ردت بحلق جاف:

- أبدأ، عرفني في السوق!..

وسمعتها ترد:

- في السوق؟!!

وخطر لها أنها كانت تهز رأسها للتأكيد.

وغالبت لذع رعب يتمطى بالإحساس باقتراف إثم ماحق. كانت أقراص الخبز لاتزال تنفث فحات حارة، لما هيأتها الأم بالطبق، في أقواس هندسية متراصة، بعد العصر المتأخر، وغطتها بمنديل وبري داكن، وأوصتها خلافاً لسائر الأيام أن تعود باكراً، وإن لم تبع كل الأقراص.

تذكرت إلحاحها العجول، والطبق يتأرجح عالياً بين ذراعيها.

للممت أطراف الحايك وشبكته بحرص فوق رأسها.

وكان الإحساس الغامر الفوران بفرح قريب يضح حنانه في رصات متناوئة صامتة ومستغرقة، ويثير توقاً جارفاً إلى البوح بما في القلب من أحلام صافية.

قالت بقدر من المرح لجارتها:

- يجب أن أعود...

وقررت أن تمشي.

وقفت فانتصب جذعها المتوقز، وانسدل الحايك حولها متهافتاً لا لونه له. نزل إلى ما فوق الكاحل بقليل. فبدت قدمها الدقيقتان. عيناها تبتسمان.

تلتقط كرسي القش وتعلقه بذراعيها. من فتحة الغطاء الطولانية يبدو قميصها الملون ونهداها المدوران، وكان القميص مقصوص الكمين، فبرزت الذراع من القوائم الأسطوانية، سمراء نحيلة يغطيها زغب أسود.

تسمع انفجار صخب ثاقب يعلو على إيقاع الصخب المعتاد. صياح ووعيد وشتائم.

تدور كل الرؤوس وتتحرك الأقدام تَوّاً وبلا تردد.

تراه في الزحام ممسكاً بخناق ذاك الذي ينظف عنه السمك.

تطل الرؤوس من الحوانيت المنارة. يقف آخرون أمام باب قيسارية الأتواب الحجري المقوس، وواجهات متاجر الخردة الغبراء وعلى الأرصفة. تعترها نوبة فزع. يتحلق سرب الصبايا من حولها. عيونهن بين بؤرة العراك والأطباق.

العراك لا يني يزداد حرجاً. الحلقة الكاملة الاستدارة تتأرجح وتتماوج. أقدامها تنزلق على القدارة والوحل، وهي في وقفها تتمم ما يشبه الابتهاج والنداء. يغيب عنها حيناً في الطوفان.

لا أحد تسأله. تظل تكابد الحيرة والخوف الذي يزرع الرعدة في الأوصال.

ترى الحلقة تلفت.

تسعى بحركة بطيئة إلى الأمام. أصابع يدها اليمنى على خدها المدور. فيها لمحة عصبية وقهر، وصوت استغاثة مجمدة مسحوبة على الفور. يبدو متعزراً.

يجفل قلبها وينحضر روعاً.

يصعد الضجيج إلى عمق السماء المفتوحة، خلف الأبنية ذات الطابق الواحد. ذاك أتاح للمارئين عبر شارع الرباط الخلفي أن يترئثوا وتدور عيونهم بتلقائية في لا مكان.

لاح لها وجه أمها.

بغموض لا يدرك تلوذها. ربما إن حضرت تفعل شيئاً. ولم تعد تعرف كيف تهرع إليها. تحار. نظرتها لا تستطيع أن تنجاب عنه، وقدامها مضغوطتان ثقيلتان. وأمها هناك في القبو المعتم بين غرف الجيران.

و... انطلقت ولولة مديدة مرعوشة.

انهذ العنقوان وسقطت الفرحة على الاسفلت.

الطننة الحادة دون صوت من سن السكين المشحودة يقود رعبها إلى الدوار.

تزوج الرؤوس. يكتفي البعض بالرؤية بإحدى العينين.

... وعرفت معرفة يأس كامل، وديبب النيران يأكلها، أنه صار سحق البعد... صرخت فخرج صوتها المتصدع جافلاً مفجوعاً مكرراً:

- يا فضيحيييي...

خريبكة (المغرب)